أين مسرح الطفل العربي؟!

بقلم
د. محمد أبو بكر حميد

كان المسرح في حياة الأمم الغربية منذ الإغريق إلى اليوم مؤشر تألق حضاري في حياتها يتدنى إذا هبط مستوى الأمة الفكري وابتذل ذوقها الفني وضاعت قيمها الخلقية، ويرتفع ويرتقي بارتفاع وارتقاء هذه المستويات جميعا، لهذا كله سيجد دارس تاريخ المسرح أن هذا الفن مرتبط ارتباطا أساسيا بوعي الأمة ومستوى رقيها في كافة العلوم والفنون والآداب لأن كل ذلك ينعكس في مرآة المسرح.

ولهذا نجد أن كافة فنون أدب الأطفال ظهرت في أوربا وأمريكا قبل المسرح، فظهرت قصص الأطفال في فرنسا وإنجلترا في القرن السابع عشر، ثم انتشر بعد ذلك في بقية دول أوربا وأمريكا . لكن الاهتمام بمسرح الطفل لم يظهر إلا في أوائل القرن العشرين مع ازدهار الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية التي تعنى بنمو الطفل العقلي والجسمي.

مسرح الطفل في الغرب

وقد تنافست الدول المتقدمة على إنشاء مسارح الأطفال وتوجيهها، فأقدم مسرح للأطفال في أمريكا أنشئ في نيويورك سنة (١٩٠٣م) ثم تطورت وزادت مؤسسات مسارح الأطفال لتعم الولايات المتحدة بأسرها، وذلك من خلال الجمعيات الخاصة أو الكليات والجامعات والمدارس المهنية التي خصصت مسرحيات للأطفال ضمن برامج مواسمها المسرحية وأصبح «مسرح الأطفال» تخصصا مستقلا يقوم على دراسة وفهم سلوك الطفل نفسيا واجتماعيا .

أما في ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي فقد افتتح أول مسرح للأطفال سنة (١٩١٨م)، وزادت مسارح الأطفال على خمسين مسرحاً، و عشرة ومئة مسرح للعرائس منتشرة في كافة الجمهوريات . ثم انتشرت مسارح الأطفال في الدول الأوربية الكبرى في أعقاب الحرب العالمية الثانية كجزء من خطة بناء الإنسان الجديد الذي يخلف الإنسان الأوربي الذي انحرفت بسلوكه أسباب الحرب وشوهت نفسه أهوالها، فكانت أرقى مسارح الأطفال في أوربا في برلين وباريس ولندن وبودابست.

فمسارح الأطفال لا تقتصر على النشاط المدرسي فحسب - كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة - بل إن هناك المسارح المتخصصة في المراحل المبكرة من عمر الطفل، وهي تلك التي تؤهله لمرحلة دخول المدرسة.

درس تربوي

يروي كاتب الأطفال المعروف الأستاذ «عبدالتواب يوسف» أنه شاهد تجربة رائدة في نيويورك لفرقة تقدم أعمالها للأطفال من سن ما قبل السادسة، فقد شاهد الممثلين يستقبلون الأطفال عند باب المسرح بملابس التمثيل ويتم دخول الطفل للمسرح بتذكرتين متصلتين يسهل فصلهما، تؤخذ واحدة عند الباب وتترك الأخرى معه حتى لا يبكي الطفل عندما تؤخذ منه تذكرته، وقبل بدء العرض يصطف الأطفال بعيدا عن آبائهم ويذهبون إلى دورة المياه حتى لا يحتاجوا للتحرك من مقاعدهم في أثناء العرض.

ولا شك أن استقبال الممثلين للأطفال بملابس التمثيل يهدف إلى إحداث نوع من الألفة بين الطفل والممثل وإسقاط حاجز الخوف من الغريب، كما أن تنظيم الأطفال في طابور للذهاب لدورة المياه درس تربوي يظهر أهمية العرض المسرحي الذي يجب أن لا ينقطع بأي شيء.

أهمية المسرح للصغار والكبار

والحقيقة أن النهضة الأوربية الحديثة قد أدركت أهمية فن المسرح للصغار والكبار معا، فأولت مسرح الصغار عناية كبيرة، لأن صغار اليوم هم كبار الغد، وهم صناع المستقبل، فأصبحت مسارح الأطفال في أوروبا وأمريكا تكاد تزاحم مسارح الكبار وأصبحت لها هيئات تشرف على عملها تربويا واجتماعيا. فهل نجحت مجتمعاتنا

فن المسرح مؤشر تألق حضاري في حياة الشعوب يتدنى إذا هبط مستوى الأمة الفكري وابتذل ذوقها الفني وضاعت قيمها الخلقية.

المسرح تجربة رائدة تحدث نوعا من الألفة بين الطفل والممثل وإسقاط حاجز الخوف من الغريب.

العربية في نقل هذا التقليد المفيد من ضمن ما نقلنا من تقاليد الغرب السيئة والطيبة؟

المؤسف أننا نقلنا فن المسرح عن الغرب في فترة متأخرة جدا – منتصف القرن التاسع عشر – ولم يمر تاريخ المسرح العربي عندنا إلا بفترة وجيزة جادة ومثمرة، ولم يلبث أن انقلب إلى التسلية والتهريج، وراج المسرح التجاري العابث، وأزاح المسرح الهادف إلى الظل. ولا تزال أفضل المسرحيات العربية إلى اليوم لم تمثل ولم تظهر على الجمهور، فتحول المسرح الهادف إلى تراث على أرفف المكتبات والتهريج يخرَجُ إلى الناس ويروَّج.

ومع ابتذال المسرح الغربي في العقود الأخيرة وخروجه عن الأعراف والتقاليد والأخلاق زاد مسرحنا العربي ابتذالا، ولكن هؤلاء الذين نقلوا إلينا ابتذال المسرح الغربي – إصرارا منهم على التقليد الأعمى – نسوا أن المسرح الهادف عند الغرب لا يزال موجودا وله رواده – وإن كانوا قلائل – لكنه مستمر ويظهر أفضل الأعمال إلى النور وإلى الناس لأنه يؤمن بأن له رسالة وأنه يخدم هدفا.

ظاهرة النجومية في المسرح العربي

ومثل هؤلاء من أصحاب المسرح الهادف يكثر وجودهم في عالمنا العربي، لكن تضيع أصواتهم في زحام التهريج والمزايدة والإبهار الكاذب، فالفن عموما وفن التمثيل خصوصا لا يزال يوظف لتلميع الشخصية الفردية سواء كان الفرد ممثلا أم كاتبا أم مخرجا. ولا يزال المسرح العربي أوالتمثيل العربي عموما يعاني من ظاهرة «النجومية» وهذه علامة تخلف عن درب الحضارة. فالأمة المتحضرة حقيقة كما يقول استانسلافسكي- المخرج الروسي الشهير – تلك التي يظهر فيها الفنان الذي يحب الفن في ذاته لا أن يحب ذاته في الفن.

وحتى يتكاثر هذا النوع من الفنانين في عالمنا لعربي فإن الانتباه سيتوجه إلى «مسرح الطفل» لأن فكرة مسرح الطفل تتطلب أناسا يخططون بدقة للمستقبل ويعرفون جيدا ما يريدونه من هذا المستقبل، ذلك لأن المسرح – دون غيره من الفنون هو المزرعة التي تنمو فيها بذرة هذا الطفل فكريا وخلقيا وسلوكياً واجتماعيا.

إن الطفل في المسرح قبل سن السادسة مثلا – كالمادة الخام التي تستطيع أن تشكلها كيفما تشاء، وإن الأمم الحية هي تلك التي تؤهل أطفالها منذ الحداثة لمواجهة المجتمع بالأسلوب الصحيح والتعامل مع المدرسة بالإقبال والتفهم والسير على درب الحياة بخطى واثقة منذ اللحظة الأولى.

أهمية المسرح للطفل

إن المسرح بالنسبة للطفل يختلف عن كل أنواع الأدب المطبوع على الورق، ذلك لأنه في الأساس فن جماعي من كل الجوانب. فالطفل الذي يتعود على التهيؤ للخروج للمسرح منذ حداثته يختلف عن ذلك الذي يجلس وحيدا في غرفته برفقة كتاب. فالخروج للمسرح يوجه في الطفل رغبة الخروج من البيت لشيء مفيد ومسل في آن واحد . وفي المسرح تنمو في الطفل روح التآلف والاندماج مع الآخرين فهو إلى جانب ما يتلقاه من إمتاع وتعليم من خلال التمثيل يبدأ في اختيار رفاقه الذين ينطلق معهم في الحديث والنقاش، ويشعر في الوقت نفسه بقيمة ذاته لدى الكبار الذين أعدوا له المسرح وأتاحوا له الفرص، ويبدأ في اكتساب ثقة بالنفس تنمو معه وتكبر وهو يحث خطاه على درب الحياة.

التلفزيون ليس مسرحا

ولأن المسرح فوق هذا كله أبو الفنون جميعا حيث تجتمع فيه فنون القول والرسم والحركة والغناء والموسيقى والإضاءة واللون وغيرها بشكل لا يجتمع في فن غيره، فهو أهم الفنون جميعا في الارتقاء بمدارك الطفل الجمالية والفنية والذوقية فيوجد لديه حسا يقظا ومقدرة على التذوق والتمييز، كما يضيف إلى فكره وعقله الوعي بتاريخ أمته وتراثها وقضايا مجتمعه ومشكلاته، ويعينه على التعامل معه من خلال ما يبثه فيه من مبادئ وقيم خلقية وإعلاء لأمثلة التضحية والإيثار والفداء.

ومن هنا نجد أننا نكون من المبالغين إذا قلنا: إن عدم إقبال الكبار في عالمنا العربي على المسرح بسبب هبوط الأعمال التي تعرض

من قبل المسرح التجاري، ذلك لأن الناس يقبلون على هذه المسرحيات مشاهدة على شاشة التلفزيون أو من خلال جهاز «الفيديو».

والحقيقة أن السر في عدم إقبال الإنسان العربي على ارتياد المسرح هو أنه لم يتعود منذ صغره على تجشم المشقة في الذهاب إلى المسرح أو على الأصح لم يجد من يهتم ويوجد له هذا المسرح، فالطفل منا ربما يذهب بصحبة والده إلى الإستاد الرياضي، وقد يتعود على لعب الكرة مع زملائه وجيرانه لكنه لم يجد من يحثه على الاشتراك في تمثيلية مدرسية إن وجدت.

لماذا لا يُقبل الكبار على المسرح؟

وعليه فإن السبب الرئيسي في عدم إقبال الكثير من الكبار - حتى المثقفين منهم - على المسرح أنهم لم يتعودوا ذلك منذ صغرهم، فالكثير من الناس يفضلون مشاهدة المسرحيات على شاشة التلفزيون غير مدركين أهمية مشاهدة العمل على الطبيعة التي يدرك فيها المشاهد ما لا تستطيع عدسة الكاميرا استيعابه، فعدسة الكاميرا تعيد إخراج المسرحية للمشاهد من وجهة نظر مهندس التصوير التي تخضع لذوق جماليات العرض المسرحي، وبالتالي يفقد العرض المسرحي عند تصويره أهم عناصره الجمالية والفنية التي تبرزها الإضاءة والصوت والديكور وحركة الممثل لأن المشاهد الذي يراها من خلال شاشة التلفزيون لا يستطيع أن يراها مجتمعة ليصدر حكما على جماليات العرض ككل وإنما يراها مجزأة من خلال انتقاء عدسة التلفزيون.

وبالمثل عندما يُعرض المسرح على الطفل من خلال شاشة التلفزيون فهو لا يفقد فقط عناصر الحياد، بل يفقد أيضا الروح الجمعية التي تسود بين زملائه من الأطفال في أثناء العرض المسرحي مثل الانفعال الذي تثيره المسرحية والتعليق عليها وتبادل الرأي فيها، وما يترتب على ذلك من إثراء لعقل الطفل وثقافته ووجدانه وحسه الاجتماعي.

تميز المسرح من القصة

وإذا كانت قصص الأطفال تذكي خيال الطفل وتغذيه، وتفتح أمامه آفاق التأمل والتصور، وتضيف إلى معجمه اللغوي كلمات جديدة وإلى موسوعته معلومات جديدة، فإن المسرح يذهب إلى أبعد من ذلك. فمناظر المسرحية مثلا تضيف إلى خيال الطفل اللمسات الواقعية، فيبدأ يرى الأشياء التي قرأ وصفها في القصص مجسدة أمامه، فيضيف إلى خياله ما لم يستطع الوصول إليه بتصوراته المحدودة إضافة، إلى أن هذه الصور تظهر أمامه مكتملة بعناصرها التشكيلية كاللون والخط والضوء والزي ... إلخ.

أما من حيث اللغة فالمسرح يعلم الطفل أسس النطق الصحيح والاستعمال الصوتي الصحيح للكلمة في الجملة، إلى جانب تضافر العناصر الجمالية والتشكيلية

امتداد ظاهرة النجومية إلى المسرح العربي تجهض الأهداف الحقيقية للأعمال المسرحية التي تفيد الأطفال.

والمجسدة ماديا على المسرح مع الحوار في ترسيخ مضمون المسرحية في ذهن الطفل وخياله.

وفوق هذا كله يرى علماء النفس أن التمثيل أو مشاهدته يساعد على تحرير الطفل - وحتى الكبير - من الكثير من العقد النفسية والسلوكية، فالطفل الانطوائي والخجول يتدرب على الالتقاء بالناس ومواجهتهم، والاحتكاك بزملائه سواء على خشبة

المسرح أم على مقاعد المتفرجين، الأمر الذي يساعده على تكوين العلاقات الاجتماعية السليمة، ثم إن مشاهدة أحداث الحياة مما يمر بالطفل في البيت أو المجتمع – كالمشكلات الأسرية وغيرها على المسرح يؤدي إلى التوتر النفسي وتخفيض حدة الانفعالات المكبوتة،وكذلك تقمص أحد الأدوار، وما يحدثه التقمص والمشاهدة من اندماج يؤدي إلى النتيجة نفسها.

إن الاهتمام بأدب الأطفال في عالمنا العربي لم يبدأ إلا منذ سنوات قلائل، وإن مسرح الأطفال لم يبدأ فعليا بعد، فالذي بدأ فعلا هو «الاهتمام» وإبداء الاهتمام في عالمنا يستمر طويلا قبل أن يدخل إلى حيز التنفيذ، وربما تزيد الدراسات عن أدب الأطفال عما أنتج فعلا للأطفال!!.

أما في المسرح فإنه في حكم المؤكد أن الكتابة عن مسرح الطفل كما ينبغي أن تكون أكثر من المسرحيات التي أخرجت للأطفال، فالتحول العربي الجماعي من أجل ثقافة الطفل العربي لم يبدأ إلا سنة (١٩٧٠) عندما عقد المؤتمر الأول لثقافة الطفل بالقاهرة، وكان مسرح الطفل من ضمن الموضوعات المطروحة ثم عقدت ندوة عن مسرح الطفل عام (١٩٧٧) بحثت مسألة الانضمام إلى المنظمة العالمية الخاصة بمسارح الأطفال في باريس ولم يتم ذلك الانضمام إلى اليوم!

وعليه فإنه لا مجال لانتشار مسرح الطفل العربي إلا بتضافر جهود وزارات الإعلام والثقافة في عالمنا العربي، فقضية أدب الطفل بشكل عام ومسرح الطفل بشكل خاص لا تزال شائعة بين الجهود الفردية والمشروعات المحلية لكل بلد عربي.

وأتصور أن أدب الطفل ومسرح الطفل هما أحد المجالات المهمة التي لا يمكن أن يختلف عليهما العرب فيما بينهم، إذا ما أرادوا وضع خطة محكمة لإنقاذ المستقبل من الضياع. فأطفالنا هم المستقبل، ويستطيع جيلنا أن يرى فيهم اليوم ما لا يستطيع أن يشهده بنفسه في المستقبل، ولا أعتقد أن خلافا سيقوم على طريقة صياغة المستقبل الذي يريده كل العرب وكل المسلمين.

وإذا تأملنا أوجه المسرح التي يشاهدها الطفل عموما فسنجدها أربعة أوجه :

الأول: مسرحيات يمثل فيها الأطفال وحدهم .

الثاني : مسرحيات يشترك فيها الأطفال مع الكبار.

الثالث: مسرحيات يمثل فيها الكبار فقط.

الرابع : مسرح العرائس.

إن نظرة تأمل لهذه الأوجه الأربعة، والبحث عنها في عالمنا العربي تقول: إنه لا يوجد عندنا حتى الآن ذلك المسرح القائم على الدراسات النفسية والاجتماعية والتوجيه التربوي المحض للأطفال. وإن كل ما تم من بعض البلاد العربية من اهتمام بمسرح الطفل كان من منطلق جهود بعض المتحمسين والمحاولات الرسمية الناقصة، فمعظم ما ينتج للطفل من مسرحيات النوع الأول التي يمثل فيها الأطفال يكاد يقتصر على التلفزيون الذي يعد برامج الأطفال للمناسبات ويظل يكررها طوال العام.

أما مسرحيات النوع الثاني وهي المسرحيات التي يمثل فيها الاطفال مع الكبار فهي في معظم الأحوال تفقد روحها التربوية، وللأسف يستغل الطفل للتمثيل في المسرح التجاري لغرض الإضحاك والتسلية، وفي الأفلام السينمائية العربية يشارك الطفل بأدوار في أعمال فيها من مشاهد الفحش والتسيب الأخلاقي ما لا يليق أن يراه الصغار والكبار معا، ونادرة جدا تلك الأعمال التي تقدم للطفل في مسرح الكبار لأهداف تربوية أو خلقية باستثناء بعض الأعمال التلفزيونية العابرة.

أمـا مـسـرح العـرائس فـلا يشـاهده الأطفال في معظم البلاد العـربيـة إلا من خـلال برامج التلفزيون، والكثير منها مترجم أو مقتبس عن القصص الأجنبية.

أين مجلس ثقافة الطفل العربي؟

وبعد .. فإذا كان الاهتمام بأدب الطفل قد بدأ في الغرب قبل قرنين من الزمان .. وبدأ الاهتمام بمسرح الطفل والتنفيذ العملي له منذ بداية القرن العشرين.

ولذلك فإنقاذا لثقافة الأطفال من الفوضى التي تعانيها، ومن أنواع الكتابة التي توجه للأطفال مرتبطة بالأمزجة الشخصية والمعتقدات الفكرية التي تخالف عقيدة هذه الأمة وعاداتها وتقاليدها، فلا بد من إنشاء مجلس أعلى من وزارات الإعلام والثقافة العربية والإسلامية يرعى شؤون ثقافة الطفل عربيا وإسلاميا، وتقوم مكاتبه في البلاد العربية والإسلامية باختيار لجان من المتخصصين وممن يوثق في

مسرح العرائس مفقود في معظم البلاد العربية.

كفاءاتهم العلمية وميولهم الفكرية تشرف على الإنتاج المحلي لأدب الأطفال، وتجهز الصالح منه وفق المعايير التي يطرحها المجلس الأعلى لثقافة الطفل، حتى لا تتسرب إلى أذهان الأطفال الأفكار الهدامة التي تشوه تاريخنا وحضارتنا ولا تؤثر فيهم الأقلام الضالة التي لا تؤمن إلا بكل ما يأتي من الغرب.

وتنبثق من هذا المجلس هيئة مسرح للطفل العربي التي ترعى الكتابة المسرحية للطفل وتقوم فرقها المسرحية بالتجول بعروضها في البلاد العربية جميعا بالتبادل . فمن خلال المسرح تستطيع أن تعرض على الطفل العربي تاريخ أمته وماضيها العظيم وأن تناقش معه أسباب واقعها الأليم.

إن انتشار مسرح عربي صادق وأمين اليوم هو أحد وسائل الاعتذار للجيل المقبل عما ارتكب في حق أطفالنا من تقصير حينما تركت الكتابة للأطفال لبعض الشيوعيين والعدميين والملحدين الذين لا يؤمنون بحضارة هذه الأمة، ويكيدون لدينها، ولكل ما هو عظيم وجليل فيها.

إن الكتابة للطفل أمانة لا يحملها من استطاع حمل القلم فحسب، بل ذلك الذي رسخ في قلبه معتقد هذه الأمة واستوعب تاريخها، ودرس حاضرها بوعي، وعرف معضلاتها وآمن بمستقبلها، وهذا الإيمان بالمستقبل هو الذي يصنع المعجزات وأتصور أنه سيكون من معجزات جيلنا العربي الحاضر خروج مشروعات ثقافة الطفل العربي ومسرح الطفل العربي من ملفات الدراسات وبطون الكتب والأبحاث إلى حيز الواقع وإلى الوجود العملي بإرادة عربية جماعية.... وما ذلك على الله بعزيز. ■

غرد يا شبل الإسلام

شعر محمود مفلح

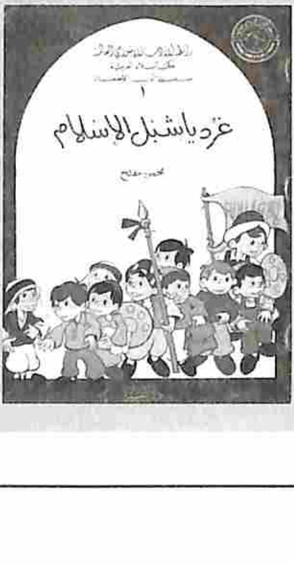

الكتاب الأول في سلسلة أدب الأطفال التي تصدر عن مكتب البلاد العربية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية- صدرت الطبعة الأولى والثانية عن دار البشير بعمان / الأردن، وستصدر الطبعة الثالثة قريبا عن مكتبة العبيكان بالرياض / السعودية.

يضم الديوان أربعة وعشرين نشيدا متنوعا تربي الأطفال على السمو الإيماني والاعتزاز بالإسلام، وتربي فيهم حب الآخرين، والإحساس بجمال الطبيعة وربط ذلك بالخالق سبحانه وتعالى.

ويضم عدداً من الأناشيد الترحيبية في الحفلات المدرسية، كما يضم مجموعة من أناشيد الأبطال والذين بدأهم بالرسول ﷺ الذي تخرج أبطال الإسلام من مدرسته الإيمانية الكبرى.